الحزن ... والعيون الصغيرة

قصة بقلم عبد الرفيع الجوهري

نحن بحاجة الى قطة رمادية ...

قطة رمادية تحطم هذه الكؤوس الصغيرة .. تمزق كل الكتب ، كل هذا التاريخ من الورق والكلام ، تبعثر كل اشيائي في هذه الغرفة التي احتمي بها من العالم ..

قطة لا تعرف عيناها الصغيرتان الحزن ..

لست اعرف هل القطط تحزن ، ولكنني اشعر باشتياق الى قطة لا تحزن .

ايام قديمة مضت كنت فيها غارقا في الحزن .. جئت الى البيت بقطة ليست سوداء .. ولكن لونها مائل قليلا نحو السواد . كانت صغيرة جدا اختطفتها من حضن امها من حانوت بائع كتب على الشارع.

لست ادري هل كانت حزينة . فقد كانت لا تصنع شيئا في البيت، كانت صغيرة .. كنت استبقيها الى جواري في الليل ، وكانت تحدث شخيرا يحملني الى دنيا مهجورة حتى انام .

وفي الصباح .. كنت احس اظافرها المائلة نحو الزرقة تتشبث بوجهي فاحس برجفة حزن ومحبة ، واضغط على رأسها الصغير فتحنيه وتنكمش في حضني .

اخي الصغير كان يحبها ... كل الاطفال يحبون القطط الصغيرة ... ويحبون كل شيء يتحرك ويقفز ويحدث الفوضى . انا احب بعض الاطفال الصغار واحب كل القطط الصغيرة المرحة واحب اخي الصغير لانه لا يعرف الحزن .

هناك بعض الاطفال يحزنون حزن الموتى ، حزنا اعمق من حزن الكبار ، ولكن اخي الصغير لا يعرف كيف يحزن ، يبكي بدموع كبيرة صافية ، ولكنه سرعان ما يتعقب فراشة حائرة في فضاء الدار او نحلة او حتى ذبابة فينسى دموعه ويسألني عن « ماما » هذه النحلة ، عن بابا هذه الفراشة ، ولكنني انا لا أجد من اسأله عن « ماما » الحزن .. عن ذلك الشيء الذي يعذبني بلا مواسم .

حينما يفرقني طوفان الشوك والظلام واللهاث ، حينما احزن احس بالمطر يغسل اعماقي .. احس بتلك الرحمة التي تسكن قلوب القسس.

انا لم اكن قسيسا ، ولا اعرف هل الرحمة تسكن قلوب القسس، ولكن هذا الخاطر يمسكني الان .. احب هذا الخاطر .. تماما كما يحدث ان نحب اي شيء .. قد نحب جدارا ، او طفلا يتيما ، او شيئا مرميا على الطريق .. وانا الان احب هذا الخاطر واحب « نيتشه » ، واحب قطة رمادية .

ليست لنا الان قطة ..

شعور بالذنب ينتابني .. اتصور ان رجلا ما سيصرخ ..

لم يحدث هذا ..

يسقط « برجسون » .

قلت لنفسي ذات ليلة وانا راجع من فاس في عربة سفر طويلة مطفأة من الداخل ان حقيبة كبيرة ستسقط فوقي .. وكأنما كانت تنتظرني تلك الحقيبة حتى افرغ من التفكير في السقوط .

كل ركاب العربة ارتعشوا في اماكنهم ، الحقيبة سقطت فوقي .. نفس الحقيبة التي تخيلتها .. يحيا « برجسون » .

اوف .. لماذا افكر في هذه الاشياء القديمة ؟

ساحاول ان ابكي ..

كثيرا ما اسدلت علي ازاري وبكيت بمحبة .

لا اعرف الان كيف ابكي ..

ساحاول ان اتصور جنازة ، او ساتذكر كيف فقدت قطتي القديمة.

خشب الطاولة التي اجلس اليها يسحق عيني ..

ليست لنا قطة .

ساغمض عيني :

دربنا مظلم .

ساصعد سلم الدار .

احب ان تبقى الغرفة غارقة في الظلام لنلمع عيون القطة .

كل شيء منطفيء الا عيونها .. لماذا ليست لنا عيون تلمع في الظلام ؟ لا احب ان اعرف . كثيرا ما احب ان اسأل فقط .

خاطر اسود يقول لي ليس بامكاننا ان نصنع شيئا سوى ان نسأل.

هذه العيون الصغيرة المضيئة تملأ علي الغرفة. لماذا تتحركين ببطء ايتها العزيزة ؟ انتظري .. ساحملك . هل تحبين الشعر ؟ ساسمع قلبك .. انا اعرف ان اخي الصغير يتعبك . سوف اشتري له دراجة صغيرة .. انه يحبك . هل تحبين الغربة ؟

العلم يموت ايتها العزيزة ..

رأيت اليوم رجلا يتعقب ولدا جميلا ..

احس برغبة في ان اسمع « شوبان » .. ستبقى الغرفة مظلمة و..

اوف .. لا احتمل ان يصرخ الان احد .. انا احاول ان اتذكر كيف فقدنا القطة القديمة . اخي الصغير يجب ان يعطوه اي شيء ليسكت: كل اشيائي ، كل كتبي ، ان يقتلعوا له زهرة من اي مكان .

ساغلق كل منفذ يعبر منه هذا الصراخ .

سأغلق باب الغرفة والنافذة واذني .

لا .. ساترك كل شيء مفتوحا .

اصرخ ايها الصغير الاحمق .. ساستمع اليك .

انك تحت .. بعيد عن هذه الغرفة الصغيرة ، ولكن صوتك الصغير يخترق كل شيء ليصل الى كل شيء ، انك متعب مزعج ولكني مع ذلك احب ان يكون لي طفل صغير مثلك لا يعرف الحزن .

انت لا تبكي الان .. انت تصرخ ، انت عنيد تحب ان تصل الى اشيائك هكذا أحبك ، احبك .

هل تبحث ايها العزيز عن قطة رمادية ؟

هل ستسكت لو عادت القطة القديمة ؟ .. انا اعرف : ستقفز من مكانك ، ستجري وراءها ، ستمسكها من ذيلها فتنشب اظافرها في يديك الصغيرتين ويقطر دم احمر ، وستقول انت بعد ان ارجع الى البيت ان القطة ذبحتك .. وتقطب وجهك الصغير وتعطيني المقص لاقلم اظافر القطة ، واضحك ويضحك كل اهل الدار ولا اعرف هل القطة تضحك.

ولنسى انت كل ذلك وتقول لي ان شعرها المائل نحو السواد يجب ان نغسله بالصابون ليصبح ابيض جميلا .

تلك القطة القديمة حينما ضاعت من البيت بكيت انت بتلك الدموع الكبيرة .. لم تصرخ هكذا كما تصرخ الان .. بكيت بكل طهارة قلبك ، وبكيت انا في هذه الغرفة وحدي بطهارة قلوب كل اطفال الارض.

كنت ادع الغرفة مظلمة وانتظر ان تلمع عيون قطتنا القديمة فلا تلمع تلك العيون الصغيرة واحزن . غير انني لا اشعر بالمطر يغسل اعماقي ، ولا احس بتلك الرحمة التي تسكن قلوب القسس .

كنت احس ـ كما احس الان ـ انني بحاجة الى قطة رمادية ..

قطة لا تعرف عيناها الصغيرتان الحزن .

ولست اعرف ايها العزيز هل هناك الان قطة بحاجة الى انسان ، انسان لا تعرف عيناه الحزن .

جامعة محمد الخامس ـ الرباط

عبد الرفيع الجوهري